المحاضرة الثامنة: المدائح النبوية والمولديات في الشعر المغربي

1- المفهوم، النشأة والتطور:

المديح النبوّي فن من فنون الشعر، ينصب على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصدر عن قلوب مفعمة بالإيمان، عامرة بالصدق، يعبّر عن عواطف الشعراء النقية وأحاسيسهم الصافية، فالمدائح النبوية كما قال زكي مبارك: «فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوّف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»[1].

وقد عُرف مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في الشعر العربي منذ صدر الإسلام، حيث تعود فكرة المدائح النبوية إلى شعراء قصيدة البردة المشهورة[2]. الدعوة الإسلامية كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير صاحب حيث وقف هؤلاء الشعراء يمدحون الرسول -صلى الله عليه وسلم- في صفاته ومناقبه الحميدة، ونبل شخصيته الكريمة، فحضور الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحكمه الحضور الجسدي، بل هو قائم على حضوره الروحاني مستنبط من السنة النبوية الشريفة في أقواله وأفعاله.

ويعدّ **حسان بن ثابت** من أبرز شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يمتاز بالصدق والإخلاص، فكان يمدح الرسول ويقارع خصومه من المشركين، وقد استطاع

---

[2]- هناك بعض الباحثين زكي مبارك مثلا لا يعدّ هذه القصائد من المدائح النبوية، فقصيدة (بانت سعاد) التي قالها كعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، لم تنظم إلا للنجاة من القتل، وكذا الشاعر الأعشى في قصيدته التي مطلعها: **ألم تغمض عيناك ليلة أرمدا وعادت ماعادَ السليم المسهدَا** فهو لم يقل هذا الشعر في مدح الرسول، وإنما كانت محاولة أرادها بها التقرب من نبي الإسلام، ودليل ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش، فهذه القصائد ليست فيها من العاطفة الدينية القوية التي تلحقها بالمدائح النبوية، ينظر المدائح النبوية في الأدب العربي: زكي مبارك، ص: 18 وما بعدها.

بفضل ما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم هجاءً موجعاً كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يراه أشد عليهم من وقع النبل كقصيدته الهمزية، حيث يقول:

وَجِبْرِيلٌ رسـولُ اللَّـهِ فِينَـا، وَرُوحُ القُـدْسِ لَـيْسَ لَـهُ كِفَـاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَـدْ أرْسَـلْتُ عَبْـداً يقـولُ الحـقُ إنْ نفـعَ الـبلاءُ

غير أنه وبعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربّه بعد أن بلّغ رسالته التي بعث لأجلها، وما أعقب وفاته من صراع سياسي بين المسلمين حول الخلافة، بدأ المديح النبوي يأخذ بعدا سياسيا مع محاولة شعراء كل طرف أن يُلحق جزءاً من صفات الرسول الكريم بصفات ممدوحيهم لإثبات أحقيتهم في الخلافة والحكم.

لقد أصبح المديح النبوي غرضا رئيسيا في الشعر، وظهر بشكل بارز في أواخر العهد الموحدي، ويعود "ازدهاره إلى عدة عوامل أبرزها شيوع التصوف وتشجيع السلاطين لهُ وسيطرة الروح الدينية على المجتمع، والنزاع بين السلاطين والأمراء، وفساد الحياة الاجتماعية في مختلف مظاهرها وانهيار الأوضاع الاقتصادية في ظل الفقر والظلم والمرض واستفحال خطر الأعداء على البلاد من الشرق والغرب، صليبين وتتاراً، واتخاذ الحروب الصليبية والتتارية طابعا دينيا، فكان من الطبيعي أن يدافع الشعراء المسلمون عن الإسلام ومقدساته، وأن **يمدحوا رسوله** ويتوسلوا إليه حتى تكشف عنهم الغمّة والكرب.."[(1)]

وإذا انتقلنا إلى الأدب العربي لرصد ظاهرة المديح النبوي، فإننا نجد الشعراء المغاربة سباقين إلى الاحتفال بمولد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد كانت قصائدهم ذكر لمناقبه الفاضلة وسيرته العطرة والوقوف على الأماكن المقدسة، حيث أن المجتمع غامض يتميز بجملة من الخصوصيات التي أهلته ليكون حاضنة للشعر الديني المرتبط بشخص الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- ذلك أن بلاد المغرب شاع فيها التصوف

والفقه إلى حدّ كبير حتى أنه بدأ يتغلغل إلى حياة الناس لتظهر أثار التصوف في جلّ احتفالاتهم، ولعل أن حركة الزهد التي تميز بها المغرب الأوسط من القرن الثالث إلى السادس الهجريين والتي برزت خيوطها الأولى في قصائد الشاعر بكر بن حماد التهرتي الذي تأثر في رحلاته إلى المشرق ورحلاته المتكررة إلى إفريقية (تونس) بشعرائها وعلمائها وصوفيتها كان سبباً في ظهور هذا النوع من الشعر الديني الذي يعبر عن ميل روحي فرضته طبيعة الحياة في هذه المنطقة[1]، ويقول أحد الباحثين متحدثا عن شيوع الاحتفال بالمولد النبوي في بلاد المغرب: «وقد ساعد على شيوع هذه الظاهرة الاجتماعية عوامل شتى منها: شيوع التصوف في المغرب شيوعا ضاق به المنصور نفسه، ومنها هذه التي كان يستغلها المنصور في احتفالات المولد فيكتب الرقاع إلى أرباب الذكر من المتصوفين والمؤذنين في كل حواضر المغرب ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع وإتقان صنعها... فإذا فرغوا تبارى الشعراء في عرض إنتاجهم مبتدئين بقاضي الجماعة **أبو القاسم الشاطبي** فينشد قصيدة يفتتحها بالتغزل والنسيب ثم يتخلص إلى مدح النبّي عليه السلام»[2].

فمن عوامل انتشار وذيوع المولديات والمدائح في الشعر المغربي شيوع ثقافة الاحتفال النبوي الشريف واستذكار مآثر الرسول صلى الله عليه وسلم وإحياء سنته، والتي جاءت كردّ فعل طبيعي على الحالة السياسية التي كانت عليها بلاد المغرب، وبخاصة في أيام الموحدين الأخيرة، حيث بدأ الضعف- كما سبق الإشارة- ينخر جسد الدولة الموحدية، فانتشرت الرّدة وتخلّف المسلمون عن سنن الأنام، فكانت هذه الاحتفالات [*]

[*]- إن كان بعض المعترضين على هذه الاحتفالات عدّوها من قبيل الابتداع، إلا أن الإجماع اصطلح عليها أنها من البدع المحمودة أو الحسنة، فهي ذات منافع عدة: أولها محبة نبينا الكريم، وتعظيم شخصه، وثانيهما تقديم القدوة من خلال شخص المعلم والمربي بتعداد مناقبه وأفعاله وأقواله... يراجع للتوسع كتاب الإمام السيوطي الذي يبين فيه الإمام مشروعيه المولد النبوي ويحمل عنوان: (حسن المقصد في عمل المولد).

محاولة لإرجاع الناس إلى دينهم، وبخاصة إذا كانت المدائح تساهم في تنوير عقول الناس [تقربهم من المعاني الإسلامية التي ابتعدوا عنها] وتمدهم بالمعرفة الدينية المستوحاة من سنن المصطفى القولية والفعلية أضف إلى ذلك كله أن المدائح النبوية في حدّ ذاتها وسيلة عند أصحابها يرجون من ورائها الأجر والثواب.

والعوامل سابقة الذكر قد تكون نفسها هي العوامل التي أدت إلى تأخر فن القصيدة النبوية في الشعر الأندلسي أيضا، «ففي منتصف القرن السادس الهجري من العهد الموحدي في الأندلس شاع بين شعراء موضوع مدح النبيّ شيوعا لم يعهد من قبل، ولعل السبب في هذا يعود إلى الهزائم المتلاحقة إلى مني بها الحكم الإسلامي خلال هذا العصر في الأندلس، واليأس من مقدرة الحكام المسلمين على ، صدّ الأعداء، وحماية ما بقي من المسلمين في المدن، فالتجأت النفوس المؤمنة بالله واليائسة من خير الحكام إلى التشفع بالنبي والاستنجاد به».[1]

ومن أشهر الشعراء المغاربة الذي عرفوا بالمديح النبوي **مالك بن المرحل** (ت699هـ) في قصيدة يعارض فيها البوصيري صاحب البردة أو البُرأة، يقول[2]:

شوقٌ كمَا رُفعَت نارٌ على علمِ تشِبُّ بين فروع الضّال والسّلَمِ

والشاعر **أبو حمو موسى الزياني** الذي يقول في شوقه للحبيب المصطفى الذي بعث رحمة وهداية للعالمين[3]:

فشهر ربيع أتي رفيعَ نبي شفيع لمن أذنبا
نبيّ أتى رحمة للعباد وأظهر للحق نوراً خَبَا

والشاعر **أبو القاسم الشاطبي** يقول في نفس المعنى[1] :

خير الأنام محمد الهادي الـــذي أردى الظلال وَجَبَّ منـــه ســـناما
كنـــز العـــوالم ســـرطينة آدم ولحفظ ذلك الســـرَّ جـــاء ختامـــاً

وأيضا نذكر أحمد بن ميمون الأشعري والشاعر أبو الحسن الشياظمي، والشاعر عبد العزيز الفشتالي، والشاعر الخطيب فرج بن القاسم، والثغري التلمساني وغيرهم.

2- البناء الموضوعاتي للمولِديات:

إذا تأملنا القصيدة المولدية- أو قصيدة المديح النبوي- في الشعر المغربي نجدها تتسم بتعدّد الأغراض والمواضيع؛ فهي ليست بالقصائد البسيطة ذات الغرض الواحد، بل هي قصائد مركبة، يقول حازم القرطاجي: «والقصائد منها بسيطة الأغراض ومنها مركبة والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحاً صرفاً أو رثاءً صرفاً، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح»[2]. والسبب في هذا التعدّد أيضا هومعارضة القصائد الأصلية كقصائد البوصيري (ت696ه) والذي يعد أستاذ هذا الفن لا في عصره فحسب، بل في العصور اللاحقة، إذ احتذاه كثير من الشعراء مستمدين معانيهم من رائعته "البردة"، فهذه المعارضة تدفع الشاعر إلى انتهاج نفس البناء، والسير على نفس الإيقاع والأعراض الشعرية والتي تجعل من النص المدحي مميزا، والقصيدة المولدية تتكون على **مستوى البناء** مِن المقدمة الغزلية، ووصف الرحلة والمطية، ومدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- والتصلية والدعاء الاستغفار والتوبة، وهذا ما أفقد المديح النبوي الوحدة الموضوعية والعضوية على الرغم من وجود الإتساق اللغوي على السطح الظاهري والانسجام على مستوى العمق الدلالي.

لقد اكتملت صورة قصيدة المديح النبوية المغربية والأندلسية أيضا وانتشرت انتشارا واسعا في عصر الموحدين، وقد تألفت من عنصرين أساسيين:

1- المطلع الذي يرسم تارة صورة المقدمة الغزلية الصوفية التي تفيض بعواطف الحب والشوق للرسول -صلى الله عليه وسلم-، والتي يضفي عليها الشاعر حسّهُ من روع الدين مبرزا عنصر الرحلة للوصول إلى مهد الرسول وأراضيه المقدسة، وتارة أخرى يرسم مقدمة طللية، أو مقدمة شكوى أو مقدمة بكاء الشباب أو مقدمة شوق وحنين أو مقدمة رحلة الظعائن...[1].

2- معاني المديح النبوي التي يصل إليها الشاعر بعد وصف رحلته عبر الفيافي والقفار وما يصاحبها من متاعب ومشاق، وتصوير الأشواق لزيارة ضريح خير الأنام والتمرغ بترابه الطاهر، والتعلق بمسكه وشذاه، واستهلال الدموع طلبا للمغفرة والشفاعة، ثم يختم القصيدة بالسلام على خاتم المرسلين.

إذن فقد كان الشعراء يستفتحون القصيدة النبوية بمقدمة غزلية صوفية يتشوقون فيها إلى رؤية الشفيع وزيارة الأمكنة المقدسة ومزارات الحرم النبوي الشريف، وبعد ذلك يصف الشعراء المطية ورحال المواكب الذاهبة لزيارة مقام النبي الزكي، وينتقل الشعراء بعد ذلك إلى وصف الأماكن المقدسة، ومدح النبي -صلى الله عليه وسلم- مع عرضهم لذنوبهم الكثيرة وسيئاتهم العديدة طالبين من الحبيب الكريم الشفاعة يوم القيامة لتنتهي القصيدة النبوية بالدعاء والتصلية.

ومما يؤكد أنّ قصيدة المدح النبوية نتاج أدبي يؤدي وظيفة اجتماعية ويعكس صورة الارتباط بين السلطة والدين أن أغلب القصائد النبوية تختم بمزج الشاعر بين مدح السلطان ومدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- مستمدا العون من رسول الله، فالمولديات إن أنشئت أساسا لامتداح النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتعظيم ذكرى مولده كموضوع رئيس لها، فمدح الملك الذي ترفع إليه القصيدة المولدية وتنشد بين يديه ليلة الاحتفال بذكرى بالمولد النبوي يعد هو موضوعها الثانوي حيث، يقول أحد الباحثين: «ولما كانت المدائح النبوية قد نمت وازدهرت في عصر الاضطرابات خارجية وداخلية وفتن

ونزاعات بين الأديان، فقد كان الشاعر يجد في تلك المدائح متنفساً يلجأ من خلاله إلى الله ورسوله، طلبا للشفاعة والعون وتأكيدا على الارتباط الوثيق بين السياسة والدين والشعر، فقد جسدت قصيدة المدح النبوي هذه الظاهرة من خلال ختم معظم المدائح النبوية بمدح السلطان في عصر الشاعر»[1].

أما عن **البناء الموضوعاتي** في المولديات، والذي حاولنا أن نرصد أهم الموضوعات المهيمنة للخطاب الشعري المولدي، فقد تبين لنا – كما سبق أن لاحظنا- أنها تتداخل في القصيدة الواحدة، وهي كالآتي:

أ- الحب المحمدي والشوق للحبيب المصطفى:

تعتبر هذه الموضوعة أساس الخطاب الشعري المولدي وبؤرته الدالة فيه، حيث العواطف الجياشة المعبرة عن استجابة نفسية وتجربة حقيقية في الحب أشبه بتجربة الحب العذري[2] يقول **أبو حمو موسى الثاني الزياني**:

مشوق تزنا بالغرام وشاحا ... متى ما جرى ذكر الأحبة باحا
تعذبه أشجانه وهو صابر ... ويبدي اشتياقا زفرة ونواحا
محب مشوق قيدته يد الهوى ... أسير لديكم لا يريد سراحا

فهذه القطعة نسيب كنسيب العذريين دلت على ديمومة الشوق والمحبة ولولا ارتباطها باحتفالية المولد النبوي لحسبتها غزلا عذريا، إذ الشاعر يرمز بعزله إلى حبّه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولقد افتتح لسان الدين بن الخطيب أيضا بعض مدائحه النبوية بمقدمات غزلية تفيض بعواطف الحب والشوق إلى رؤية المحبوب، وهذه المقدمات جاءت لوحات فنية مناسبة لقصيدة المدح النبوي لما فيها من عمق نفسي، وبعد عاطفي

جعلها أقرب إلى الغزل الرمزي لتكون وثيقة الصلة بالعواطف الدينية النابعة عن حب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، يقول في فاتحة إحدى مدائحه[1] :

ما على القلبِ بَعدْكم من جُنــاح ... أن يُــرى طــائراً بغيــر جنــاحِ
وعلى الشوق أن يشبَّ إذا هــبَّ ... بأنفســـــكم نســـــيم الصــــــباح

فقد اكتسبت المقدمة الغزلية عند الشاعر- وعند معاصريه- التي تتصدر القصائد النبوية ثوبا جديداً مختلفاً عن ثوب الغزل في مقدمات قصائد المدح التقليدية « فقد تخففت المقدمات الغزلية في المدائح النبوية من الأوصاف الحسية التي غصت بها المقدمات التقليدية، بالإضافة إلى غلبة روح الحنين والشوق إلى أماكن التغزل لما لها من معانٍ دلالية، وكذلك فقد توشحت هذه المقدمات بالمعاني الرمزية الصوفية التي أخرجتها من دائرة التقليد الحرفي، وأدخلتها في نطاق الرمز والتجديد»[2] .

ب- مدح الرسول وتعداد مناقبه ومعجزاته وفضله في العالمين:

حيث يقوم الشاعر بتعداد صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- ومآثره ويسعى إلى تتبع أقواله وأفعاله، يقول **الثغري التلمساني** في هذا الصدد[3]:

رسول كــريم خــاتم الرســل كلهــم ... وأعظم من تلقــي إليــه الرســائل
وأفضـــل مبعــوث وأكــرم شــاعر ... تنال به يــوم الحســاب الوســائل
بدا فانجلى ليــل الضــلالة بالهــدى ... وزاح به مــا زخرفتــه الأباطــل
وعم جميــع الخلــق علمــا وحكمــه ... فلم يبق في عصر الجهالة جاهــل

فالشاعر في هذه الأبيات يمتدح النبي -صلى الله عليه وسلم- ويذّكر بفضله في العالمين، وأن بمجيئه انجلى ليل الضلالة وعمّ الكون العلم والأخلاق، فهو الهادي الذي اهتدت معه البشرية إلى نور اليقين، قال تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ

الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»[1] وهذه الصورة نقلها إلينا الكثير من الشعراء كالشاطبي وأبي حمو موسى الزياني وابن الخلوف القسنطيني في داليته التي عنوانها "قطر النبات في مدح ذي المعجزات والشاعر **أحمد بن الأشعري** في قوله[2]:

لأحمد خير الخلــق أهــدي تحيتــي محمــد الآتــي بحكــم وحكمــة

كما يعّد تعداد معجزات النبي عنصرا أساسيا في بناء القصيدة المولدية وهو غالبا ما يأتي بعد مدح النبي -صلى الله عليه وسلم- وتعداد صفاته، فهذا الشاعر الثغري التلمساني بعدما ذكر أن الله تعالى خص نبيّه الأمين بالقرآن الكريم أعظم معجزاته في قوله:

وأعظمهــا القــرآن يهــدي لنــا الهــدى فيا حسن ما يهدي ويفوز من يهدي
هو الوحي أجلى من سنا الشمس في الضحى سناه أحلى حين يتلى مــن الشــهد

نراه يشرع في تعداد معجزات النبي -صلى الله عليه وسلم- قائلا[3]:

لــه انشــق بــدر الــتم عنــد كمالــه فشاهد من كــان بــالقرب والبعــد
لــه حَــنَّ جــذع النخــل عنــد فراقــه حنيناً شكى من شــوقه ألــم الفقــد
وفــاض نميــر المــاء بــين بنانــه إلى أن تروى الجيش من ذلك الورد
وآياتــه قبــل الــولادة وبعــده لكثرتها لم تحصد في القبل والبعــد

فالشاعر في هذه الأبيات يذكر أن معجزات النبي الكريم لا تحصى ولا تعد قبل ولاته وبعدها، وهي تحمل دلالة قاطعة على صدق رسالته نبوّته، ومنها معجزة حنين جذع النخل إليه التي استلهمها كثير من شعراء القصائد المولدية كابن الخلوف القسنطيني ولسان لابن الخطيب وغيرهم من الشعراء ليذكروا النصارى الذي يتكالبون على الدين وأرض العرب، ولا يتركوا مجالاً للشك في نفوس المشككين.

[1]- سورة الفتح، الآية: 28

جـ- الإشادة بليلة مولده صلى الله عليه وسلم:

يعدّ تعظيم ليلة المولد النبوي الشريف من أهم العناصر التي تدخل في البناء الموضوعاتي للقصيدة المولدية، وهي المناسبة التي من أجلها أنشئت هذه القصيدة، حيث يعود الشاعر **أبو حمو موسى الزياني** إلى الشهر الذي جاء فيه سيد الخلق إلى العالمين كاشفا عنهم الظلمات التي كانوا يعيشون فيها في قوله[1] :

شـــهر ربيـــع أتـــي رفيـــعَ نبـــيٌّ شـــفيعٌ لمـــن أذنبـــاَ
نبـــيٌّ أتـــي رحمـــة للعبـــاد وأظهـــر للحـــق نـــوراً خَبَـــا

كما يجمع الشاعر **الثغري التلمساني** في ثنائه بين شهر ربيع الأول وليلة الإثنين، وهما وقتا مولد المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، حيث نجده يقول[2]:

بمولـــده الأيـــام راق جمالهـــا فطابت لنا أسحارها والأصائل
أشهر ربيع حزت كل فضـــيلة بأفضل من تمت لديه الفضائل
وليلة اثنتي عشرة منه أشرقت ففيها بدا بدر الهدى وهو كامل

د- الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

فشخصية النبي-صلى الله عليه وسلم- أعظم وأوسع أن يحيطها الوصف أو تحتويها الكلمات، والشاعر مهما أوتي من فصاحة وبلاغة يبقى يشعر بالعجز والتقصير في امتداح النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا باعتراف الشعراء أنفسهم في بعض من مدائحهم النبوية، يقول أحمد بن ميمون الأشعري[3]:

محمد رسول الله والمدح دونـــه ولو ملأ المداح كل صـــحيفة
ولو كان كالبحر المحيط مـــدَادُه وكالشعر الأقلام ما قط جَفـــتِ

فالشاعر يذكر أنه لو كان البحر مِداداً لما كان ذلك كافيا للإحاطة بصفات النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يعود ويعترف بعجزه عن مدحه وبخاصة بعد أن أثنى عليه الله تعالى[1]:

كفاه ثناء الله في الفتح والضحى وتكريره إياه في غير سورة
فماذا يقول العالمون وربهم كساه من الأمداح أسبغ حلّةٍ وجاء
ولكن في جهد المقل لنفسه وحسن الظن بيت قصيدتي

وهي صورة العجز والاعتراف بالتقصير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن مدحه القرآن بالآيات المبينات، ينقلها لنا الشاعر **ابن الخلوف القسنطيني** قائلا[2] :

واجنحْ إلى العجز ففي طيه سر به تكفي أليم المُلامُ
وهل يفي بالمدح فيك امرؤ من بعد ما أثنى عليك السلامُ

هـ- الشوق إلى زيارة مرابع المصطفى وطلب شفاعته:

وقد انبثق عن عنصر الرجاء وطلب الشفاعة عنصرا آخر يعدّ من أبرز مقومات قصيدة المديح النبوية، وذلك لارتباطه الشديد بمدح الرسول والتشوق إلى زيارة مثواه وهو الحنين إلى زيارة المقدسات التي ترتبط بالمصطفى -صلى الله عليه وسلم- كالمدينة المنورة ومكة المكرمة، ولقد أنشد الشعراء قصائد يتشوقون فيها إلى المرابع النبوية التي صارت هي الرجاء المأمول، يقول **أبو فارس عبد العزيز الفشتالي** في نونيته:[3]

وأهفوا مع الأشواق للوطن الذي به صحَّ أُنسي الهنيُّ وسلواني
أصبو إلى أعلام مكة شائقاً إذا لاح برق من شمام ونهلانِ
متى يشتفي جفني القريح بنظرة يُراجُّ بها في نوركم عين إنساني
محمد خير العالمين بأسرها وسيّد أهل الأرض والإنس والجان

فهذه الأبيات فياضة بالشوق، متوهجة بالتطلع إلى زيارة حبيب الله، وهذا الشوق الذي صار بمثابة العلّة لا يشفيها غير زيارة الأماكن المقدسة كقبر النبي -صلى الله عليه وسلم- والحج إلى أرض الحجاز ليَلْثُمَ بقاع تلك الأرض علّه يطفئ لهيب شوقه، ويغسل ذنوبه وخطاياه طالبا شفاعة النبي المصطفى- صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة، حيث يعدُّ موضوع الشفاعة واحدا في العناصر المشكلة لقصيدة للمديح النبوي، وتعد مناسبة المولد فرصة للتوجه إلى النبي لطلب شفاعته، وفي ذلك يقول **الثغري التلمساني**(1):

ألا يا رسول الله دعـــوة شـــيق   يؤمّـــل أمـــالاً لـــديك فســـاحَا
ومالي سوى حبّي إليك وســـيلة   أمدّ بها نحو الشـــفاعة راحَـــا

فالذات المذنبة قد تابت وعادت إلى رشدها، ولن تجد لها شفيعا يوم القيامة غير سيدنا وسيد الخلقية وخيرها، وبنغمة خزينة نجد الشاعر **أبو حمو موسى الزياني** ينشد قائلا(2):

فوا أسفاً مـــن ذنـــوب مضـــت   تقضيها فـــي زمـــان الصِـــبا
وكم لُمت نفســـي فمـــا أقلعـــتْ   وعاتبـــتُ قلبـــي فمـــا أعتبـــا
وكم قد بكيـــت لـــذنبٍ جنيـــت   وقلبِـــي نهيـــت ولكـــن أبـــى

وبهذا يستكمل الشاعر أغلب موضوعات المدحة النبوية محاولا رسم لوحة فنية متكاملة، فبعد أن بدأ قصيدته بمطلع رمزي ربطه بالغرض ربطا وثيقا، ثم عدّد صفات الرسول، وذكر معجزاته، وأشاد بمولده ومدح أمير المؤمنين في عصره تشوّق وتمنى زيارة قبر الرسول الكريم رغبة وطمعاً في شفاعته، وهنا تعكس قصيدة المدح النبوي بمقوماتها دورا هاما في نشر الثقافة الدينية، إذ استطاع الشعراء من خلالها أن يعرضوا مبادئ الدين الإسلامي ويوضحوا رسالته، كما أن احتفاليات المولد النبوي التي تنشد فيها هذه المدائح، أسست لعودة أواصر الأخوة والمحبة بين أفراد المجتمع الواحد -حتى في عصرنا-.